

ابن حزم : الإسباني أو الفارسي وتشيعه لبني أمية

الناصر الكتاني
الاستاذ بكلية الآداب
ودار الحديث الحسنية

لسلفه نباة فأبوه أحمد على الحقيقة هو الذي بنى بيت نفسه ، ولم يشذ أحد من الذين أرخوه فيما علمنا عن رفع عمود نسبه الى يزيد مولى يزيد بن أبي سفيان ، واجمعوا كلهم على أنه على بن أحمد بن سعيد ابن حزم بن غالب بن صالح بن خلف بن معدان ابن سفيان بن يزيد الفارسي .

وأجمع كل من أرخه ممن ذكر عمود نسبه على أن جده الاقصى في الاسلام يزيد مولى يزيد بن أبي سفيان ، فاذا أضفنا الى ذلك ما نص عليه مؤرخوه القدامى والمحدثون من أنه ينتمي الى بيت رفيع من موالى بنى أمية مترف بالجاه العريض والحسب الكريم والغنى والثروة والكلمة النافذة وقفنا جامدين أمام نص أبي مروان حيان بن خلف حيارى لا نعرف الذي يرمى اليه من وراء الحط على أسرة ابن حزم وانه حامل الابوة ومن العجم وجده الادني وهو سعيد أول المسلمين من آبائه وأجدد بنا أن نسمى هذا سببا وشيعة من أن نظنه تاريخا لعلم من الاعلام .

ولقد ذهب الاستاذ الكبير محمد ابو زهرة الى امكان أن يكون ذلك تشييعا بأبي محمد ابن حزم من الفقهاء الذين ناضلهم واشتد في مجادلتهم .

وهذا جائز ، ولكن من أين أتى به ابن حيان ولم يتقدمه أحد به فيما علمناه ، يكون ابن حيان غير ثقة فيما ينقل أم يكون خصما من خصوم ابن حزم والمعاصرة حجاب كما يقول علماء النفس من الصوفية .

كان أول معرفتي ابن حزم وانا فتى حديث السن لم اتجاوز الخامس عشرة من عمري ، زارنا بمنزلنا بفاس صديق قديم فناولني الجزء الاول من المحلى وقال : هذا أحدث كتاب طبعته مصر لرجل من الصدر الاول فقرأته حتى آخره ومنذ ذلك الحين وانا أحب ابن حزم وأتبع آثاره وألهج بذكره واسمع الى تحصيل معارفه وما أستطيع من كته ، وشغفت بتتبع أخباره وترجمة حياته وما أعرف كتابا فيه لابن حزم ذكر ليس عندي الا جهدت ان احصل أو ان أطلع عليه حتى تصورت ابن حزم عملاقا في رجال الفكر والبحث أمنا في المناضلة والكفاح لا يسل ولا يعيا أمام خصومه معيننا دفاقا من الحجج والبراهين والادلة وإرادها ، سيلا جازفا يتلغ معارضيه فيطويهم ويمتد الى آخرين ينازلهم الميدان .

وتلفت العلماء منذ الف سنة الى هذا السيل الداهم يتواصفونه من أين أتبل ، قال قائلون انه من فارس ، وان مصبه الاول يزيد مولى يزيد بن أبسى سفيان أمير الشام وأخو الملك معاوية .

نسب ابن حزم

قال (I) حيان بن خلف ابو مروان القرطبي : وكان من غرائبه انتمائه فق فارس واتباع أهل بيته له في ذلك بعد حقة من الدهر تولى فيها أبوه أحمد بن سعيد لبني أمية ، لا عن صحة ولاية لهم عليه ، فقد عبده الناس حامل الابوة ، مولد الارومة من عجم ولبلة ، جده الادني حديث عهد بالاسلام !! لم يتقدم

كان اسمه في وقت غزو النور ماندين اي سنة 229
وهب الله ابن حزم .

والى هذا ذهب المستشرق غرزية غومس الاسباني
فقال (5) عن ابن حزم انه كان اسبانيا خالصا ،
ورات الحكومة الاسبانية اخيرا ان في نسبة ابن حزم
الى جنسها الاسباني شرفا كبيرا لقومها فأقامت له
نصبا في أحد ميادين قرطبة بمناسبة مرور نحو الف
سنة على وفاته تحية لذكراه وتعلقا بهذا النسب النقي
أضفى على أسرة ابن حزم .

وسواء كان ابن حزم اسباني الاصل او فارسيه
فان شيئا من هذا لا يجيز للمؤرخ اختراع أحداث
التاريخ ، فما من أحد من العلماء العرب ذكر عن حزم
انه اول أجداده اسلاما فيما نعلم بل القولة الوحيدة التي
لا يجدها الباحث عند احد من المؤرخين هي ما زعمه
ابو مروان حيان بن خلف من أن جده الادنى اي سعيد
اول أجداده دخولا للإسلام مع العلم أن كلا من ابي مروان
وابن حزم ينتسبان الى ولاء بنى أمية .

واذا ذهبنا نبحت في جدية الاستدلال عن اسم
حزم وانه في الاندلس اكثر شيوعا منه في المشرق وان
حاكم لشبونة كان اسمه في وقت غزو النور ماندين
وهب الله ابن حزم لم نجد فيه من العلم ما يكلفنا
الاستدلال على نقضه وخاصة ان في الصحابة والتابعين
وتابعيهم من كانت أسماؤهم وأسماء آبائهم واجدادهم
حزما ونذكر على سبيل التذكير حزم بن عبد عمرو
الخشعمي ، وحزم بن عمرو الواقفي ، وحزم بن ابي كعب
الانصاري ، وعمرو بن حزم الخزرجي الانصاري استعمله
رسول الله صلى الله عليه وسلم على أهل نجران .

ومن التابعين ابا بكر بن محمد بن عمرو بن حزم
الانصاري عامل عمر بن عبد العزيز على المدينة وحزم بن
أبي حزم شيخ الحسن البصري وتوفي سنة 175 هـ ،
ومن تتبع من أسماؤهم حزم في المشرق من العرب
الخلص وجد من لا يكاد يحصيه عدا فلا حاجة بنا الى
الاستكثار ممن اسمه حزم ، وشيوعية اسم حزم في
الاندلس او في المشرق لا تفيد كثرتها أو قلتها نسبا
او تنفيه عن صاحبه فالاستدلال بمثل هذا في مثل هذا
الموطن لا نحسبه جدا يشتغل به أهل العلم .

ولكن ابا عبد الله محمد بن فتوح الحميدى يصفه
في الجذوة (2) بالصدق بل ينوه به أبو محمد ابن
حزم ويشني عليه .

هذه واحدة

أما انتماؤه الى فارس وامكان الطمن في هذا
الانتماء فما علمنا سببا يدعو ابن حزم الى التكثر بهذا
الانتماء وهو الذي يذهب الى «أن روح (3) العصبية
الفارسية هي مصدر المذاهب الضالة كلها في الاسلام
وان الفرس لما امتحنوا بزوال الدولة عنهم على أيدي
العرب وكان العرب أقل الامم خطرا عند الفرس
تعاظمهم الامر وتضاعفت لديهم المصيبة وراموا كيد
الاسلام بالمحاربة له في اوقات شتى ، ففي كل ذلك
يظهر الله سبحانه وتعالى الحق وكان من قادتهم سنياد
وأستاذيس والمقنع الكندي وبابك الخرمي وغيرهم
وقبل هؤلاء رام ذلك عماد المنقب بخداش وأبو مسلم
السراج فرأوا أن كيدهم على الحيلة انجع فأظهر قوم منهم
الاسلام واستمالوا أهل التشيع باظهار محبة أهل
بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم واستشناع ظلم
على رضى الله عنه ثم سلكوا بهم مسالك شتى حتى
أخرجوهم عن الاسلام ، انتهى كلام ابن حزم .

فهل يصدر هذا عن رجل يتكثر بفارسيته ويلصق
تصبيته بعصبيتهم وهو مع ذلك يروى في البخاري
عن أبي ذر انه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول
ليس من رجل ادعى لغير ابيه وهو يعلمه الا كفر ،
ومن ادعى قوما ليس له فيهم نسب فليتبوا مقعده
من النار .

وأما انه من عجم «لبلة» اي انه اسباني الاصل
فقد ارتأى الدكتور طه الحاجري في كتابه (4)
«ابن حزم» صورة اندلسية «انه من أهل اسبانيا الغربية من
أسرة كانت تقيم في لبلة وكانت تدين بالنصرانية وظلت
على نصرانيتها بعد الفتح الاسلامي أمدًا غير قصير حتى
اعتنق حزم الاسلام في منتصف القرن الثالث الهجري
ويضيف ان اسم حزم كان اكثر شيوعا في الاندلس
منه في المشرق كما يلاحظ في هذا الاقليم الذي
خرجت منه أسرة ابن حزم وان حاكم لشبونة فيه

(2) ص 188

(3) تاريخ الفكر الاندلسي ص 226 نقلا عن ج 2 من الفصل ص 115

(4) ابن حزم صورة اندلسية ص 17

(5) تاريخ الفكر الاندلسي ص 76

تعصب ابن حزم لبني أمية

قال الحافظ ابن حجر : النصب بغض على ابن أبي طالب وتقديم غيره عليه .

ثم نقول لابي مروان عن تشيع ابن حزم لبني أمية : قد ذكر ابن حزم مروان بن الحكم في معرض حديث فاطمة بنت قيس المخرج في صحيح مسلم والتي روت عن النبي صلى الله عليه وسلم في المطلقة ثلاثا انها لا تنفق لنا ولا سكني فقال مروان اذ عرض عليه حديثها : « لم يسمع هذا الحديث الا امرأة ... سناخذ بالعصمة التي وجدنا الناس عليها .

قال ابن حزم : (II) « لو ان مروان تورع هذا الورع حيث شق عصا المسلمين وخرج على ابن الزبير أمير المؤمنين بلا تأويل ولا تمويه فأخذ بالعصمة التي وجد جميع الناس وأهل الاسلام عليها من القول بامامة ابن الزبير من أقصى أعمال افرريقية الى أقصى خراسان حاشا أهل الاردن لكان اولي به وانجى له في آخرته .

مروان بن الحكم أبو الاملاك يقذفه ابن حزم بالمرورق وشق عصا المسلمين يقول هذا متعصب قط لبني أمية فضلا عن رجل يوسم بالنصب عصبية لبني مروان من الامويين ومع ذلك فقد تجاوز ابن حزم شخص مروان تجاوز أهل العلم الذين يقدرون مواقع الاصابة والخطأ فيما يصنعون أو يقولون وترك لابن سعد يتم قصة الحرة . لما وثبوا (I2) ببني أمية فأجلوهم عنها الى الشام وفيهم مروان بن الحكم وابنه عبد الملك بن مروان وأخذوا عليهم الايمان الا يرجعوا اليهم وان قدروا أن يردوا جيش مسلم بن عقبة المري ان يفعلوا فلما استقبلوا مسلم بن عقبة سلموا عليه وجعل يسألهم عن المدينة واهلها فجعل مروان يخبره ويعرضه عليهم ورجع معه مؤازرا له ومعينا له على أمره حتى ظفر بأهل المدينة وجعل عبد الملك بن مروان يدله على عورات أهل المدينة وكيف يؤتون ومن أين يدخل عليهم وأين ينزل فلما جاء أخرا عبد الملك بن مروان بخبر هزيمتهم سجد ، وكتب مسلم بن عقبة بذلك الى يزيد وكتب يشكر مروان بن الحكم ويذكر معونته اياه ومناصحته وقيامه معه وقدم مروان على يزيد بالشام فشكر له ذلك يزيد وقربه وأذناه .

قال (6) ابو مروان بن حيان : « وكان مما يزيد في شنآنه تشييعه لامراء بني أمية ماضيهم وياقيهم بالمشرق والاندلس واعتقاده لصحة امامتهم وانحرافه عن سواهم من قریش حتى نسب الى النصب .

واذا نحن تتبعنا ما كتب ابن حزم عن بني أمية أو ما له صلة ما او سبب بهم وجدناه يقول عن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان النص (7) التالي : « قد عنتك يزيد الاسلام هتكا وانتهب المدينة ثلاثا ، واستخف بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفي واقعة الحرة جالت الخيل في الروضة بين القبر والمنبر ولم يصل جماعة في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا كان فيه أحد حاشا سعيد بن المسيب . والى جانب هذا يقول ابن تيمية (8) عن يزيد : « ان احدا لم يكن يسب يزيد على عهد الصحابة والتابعين بل هناك من يعتقدده وليا ! ومن يسبه ويلعنه وهذا غلو فيه من الطرفين خلافا لما أجمع عليه أهل العلم بالايمان فيزيد لم يكن كافرا ولا زنديقا !! وكان فيه شجاعة وكرم !! ولم يكن مظهرا للفواحش كما يحكي عنه خصومه ! بل طائفة من أهل السنة يجيزون لعنه ، وطائفة أخرى ترى محبته ! وانه مسلم تولى على عهد الصحابة وبنايعه الصحابة وكانت له محاسن وكان مجتهدا !!! فيما فعله .

هذا ابن تيمية امام أهل السنة وسيفها المسلول في وجه المبتدعة والضارين وجه الاسلام .

أما الذهبي وهو الناقد البصير من أهل الجرح والتعديل في علماء الحديث ومن أهل السنة والجماعة فانه يقول : (9)

يزيد بن معاوية كان ناصبيا فظا غليظا جلفا يتناول المسكر ويفعل المنكر افتتح دولته بقتل الحسين الشهيد رضى الله عنه واختتمها بوقعة الحرة ولم يبارك له في عمره . (10)

(6) الذخيرة القسم الاول ص 142

(7) الروض الباسم ج 2 ص 36 نقلا عن الذهبي في النبلا . (8) في رسالة ابن تيمية الى جماعة الشيخ

عنى بن مسافر الاموى . (9) الروض الباسم نقلا عن الذهبي في النبلا ج 2 ص 36 . (10) مقدمة فتح الباري ج 2 ص 460 .

(11) المحلى ج العاشر ص 299

(12) ج 5 طبقات ابن سعد ص 38-39-255

وقال ابن حزم (13) عن عبد الملك بن مروان نفسه لقد أحسن أمير المؤمنين عبد الله بن الزبير لما ابتداءه الفساق بالقتال في حرم مكة : يزيد ، وعمرو بن سعيد ، والحسين بن نير ، والحجاج ، ومن بعثه ، ومن كان معهم من جنود السلطان قاتلهم مدافعا عن نفسه .

وأما بعث الحجاج عبد الملك بن مروان ، وهنا تجرأ علنا أن يسمى فاسقا يزيد بن معاوية وعبد الملك ابن مروان . والولاية الامويين ، وقال (14) عن الوليد بن يزيد بن عبد الملك انه كان فاسقا كافرا .

وهذا مثل آخر يقوم شاهدا على تزييف ما يلصق بابن حزم من تشييعه زمراء بني أمية ماضيهم وبارقيهم بالمشرق والاندلس ، فقد عقد ابن حزم فصلا كبيرا في كتابه (15) الاحكام في أصول الاحكام يبطل به ترجيح الحديث بعمل أهل المدينة وذكر نسخة كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي كتب في الصدقة وهي عند آل عمر بن الخطاب وهي التي انتسخها عمر بن عبد العزيز من سالم بن عبد الله بن عمر حين أمر على المدينة فأمر عماله بالعمل بها وكتب بها الى الوليد بن عبد الملك فأمر الوليد عماله بالعمل بها ثم لم يزل خلفاء بني أمية يأمرون بها قال ابن حزم وقد عمل عمال عثمان قبل ذلك بغير ما في هذه النسخة وعمال على رضوان الله عليه بما جاءت به الرواية عنه وعمال ابن الزبير بعد ذلك وعمال أبي بكر الصديق بغير ذلك قال ابن حزم :

«فما الذي جعل عمال الوليد الظالم ومن بعده ممن لا يعتد به حاشا عمر بن عبد العزيز وحده اولى من عمل ابن الزبير وعلى وعثمان وابي بكر ثم قال بعد ذلك وأما مذمى هذا الصدر الكريم - ويريد به أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء وعمالهم على الإقاليم - فوالله ما ولى المدينة ولا حكم فيها الا فساق الناس كعمرو بن سعيد والحجاج بن يوسف وطارق وخالد ابن عبد الله القسرى وعبد الرحمن بن الضحاك وعثمان ابن حيان المرى وكل عدو لله حاشا أبا بكر محمد بن عمرو بن حزم وابان بن عثمان وعمر بن عبد العزيز وأولئك كانوا ولاة بنى أمية على المدينة وعمالهم .

وشاهد آخر من ابن حزم نفسه في كتابه الاحكام في فصل عقده لابطال الادعاء ان اجماع أهل المدينة هو الاجماع فقال : (16) «فان موهوا بما روى من عمل قضاة المدينة الذين أدرك مالك فليعلم كل ذى فهم أن النازلة كانت تقع بالمدينة وغيرها فلا يقضى فيها الا بالامير ولا القاضي حتى يخاطب الخليفة بالشام ثم لا ينفذ الا ما خاطبه به ثم قال مستخفا بأمرام مؤمنى بنى أمية :

فانما هي أوامر عبد الملك والوليد وسليمان ويزيد وهشام والوليد بحسبكم !!

وهذه لقطة عجيبة وجدناها في ترجمة علي بن ابي طالب في كتاب (17) جوامع السيرة لابن حزم وهو يورثه اذ يقول عن علي انه ولى الخلافة يوم قتل عثمان وتأخر عن بيعته قوم من الصحابة « بغير عذر شرعى » .

وما نعلم مؤرخا من أهل السنة ممن يحرصون على الا يوسموا بالتشييع بله التعصب لبني أمية تجرأ أن يقول عن الصحابة الذين لم يبايعوا عليا انهم تخلفوا عن بيعته لغير عذر شرعى .

هذا تعبير فريد من رجل يقال عنه انه ناصبى متشييع لبني مروان ، وأسلوب جرىء في كتابة التاريخ من رجل قد وزر لملوك بني أمية وكان أحد أعمدتهم في سياسة الاندلس وفي قيادتها وكان رأس بيت مناصر لهم متمسك بحقهم في العرش لطول ما اتصل رجاله بخلفائهم وأقاموا في خدمتهم هكذا يقول مؤلف كتاب تاريخ الفكر الاندلسي عن ابن حزم حين أخرج عن قرظبة على اثر قيام الفتنة البربرية بها .

وهذا مثل آخر عجيب من أموية ابن حزم اذ يقول (18) وهو يوازن بين عصر بني أمية وعصر بنى العباس : « كانت دولتهم - أى بنى العباس - أعجمية سقطت فيها دواوين العرب الا انهم لم يعلنوا سب أحد من الصحابة رضوان الله عليهم بخلاف ما كان بنو أمية يستعملون من لعن على بن ابي طالب رضوان الله عليه ولعن بنيه الظاهرين بنى الزمراء وكلهم كان على هذا حاشا عمر بن عبد العزيز ويزيد بن الوليد رحمهما الله .

(13) المجلد ج 10 ص 497 جوامع السيرة ص 364 .

(14) جوامع السيرة ص 364 .

(15) ج 2 ص 113-115 .

(16) ج 4 ص 218 .

(17) جوامع السيرة ص 355 .

(18) جوامع السيرة ص 366 .

خير منه في أشياء فقد عذب بلال في الله تعالى بما لم يعذب ابوبكر وجالد على مالك يجاهد ابو بكر وان يكن أبو بكر خيرا منه على العموم وفق أشياء غير هذا كثيرة وفق معرض حديث ابن حزم عن طائفة التصيرية وموقفها من فاطمة ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وابنيها الحسن والحسين قال (24) : « رضى الله عنهم ولعن مبغضهم »

وسبق لابي عبد الله ابن الوزير مؤلف كتاب الروض الباسم في الذب عن سنة ابي القاسم المتوفى سنة 540 أن زين (25) اتهم ابن حزم بالتعصب لبني أمية قائلا ان ابن حزم « يرد على من رماه بالعصبية ويشهد له بالسلوك من الانصاف في طريق سوية » وكذلك جاء في مقدمة كتاب جوامع السيرة لابن حزم التي كتبها صديقتنا الدكتور ناصر الدين الاسد مدير جامعة عمان في المملكة الاردنية حاليا والدكتور احسان عباس بان اتهم ابن حزم بالتشيع لبني أمية والانحراف عن سواهم من قريش اساءة كبيرة الى رجل عاش من طلاب الحق وعشاقه في القول والعمل فليس فيما كتبه ابن حزم ما يشير الى شيء من التعصب لهم .

« ابن حزم وموقفه من قاتل علي بن ابي طالب »

ومع ذلك فقد قال ابن حزم عن عبد الرحمن بن ملجم المرادي قاتل علي : « لاخلاف (X) بين أحد من الأمة في أن عبد الرحمن بن ملجم لم يقتل عليا رضى الله عنه الا متأولا مجتهدا مقدرا انه على صواب وفي ذلك يقول عمران بن حطان شاعر الصفرية

ياضربة من تقى ما اراد بها

الا ليبلغ من ذى العرش رضوانا

انسى لاذكره حينما فأحسبه

اوفى البرية عند الله ميزانا

وكذلك قال محمد (26) بن ادريس الشافعي قد

قتله عبد الرحمن بن ملجم متأولا

هذه أمثلة على مدى تشيع ابن حزم لامراء بنى أمية بالمشرق .

أما بالاندلس فيقول (19) عن محمد المستكفي بن عبد الرحمن بن عبيد الله بن الناصر انه « كان سلطانا جائرا ظالما عاديا قليل الدين كثير الجهل غير مأمون ولا متثبت »

وعن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم ابن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية انه (20) كان فتلا تهون عليه الدماء ومع ما نان يظهره من عفه فانه احتال على أخيه المنذر وواط عليه حجاما سم المبضع الذي فصد به ، ثم قتل ولديه بالسيف واحدا بعد واحد وقتل أخاه القاسم ثالثهم الى أن قتل من قتل من غيرهم ونجمل الحديث عن تشيع ابن حزم لامراء بنى أمية بالاندلس وبالشرق جميعا بما ذكره (21) لسان الدين ابن الخطيب عن ابن حزم وهو يؤرخ هشام بن عبد الرحمن بن معاوية فقاك وعده ابو محمد ابن حزم ثالث ثلاثه من العدول في بنى أمية خاصة .

والثلاثة الامويون العدول الذين عناهم من ملوك بنى أمية وخلفائهم والذين سماهم في كتبه هم عمر ابن عبد العزيز ، ويزيد بن الوليد في المشرق وهشام بن عبد الرحمن هذا في الاندلس على الرغم من انه كان يذكر ملوك الاندلس الامويين في كتابه طوق الحمامة ويترضى عنهم وهو بعد فتى في ريعان الشباب لم يعرف الدنيا كما عرفها بعد أن سلخ الشباب وعركته الايام فعرفته هي كذلك .

قال (22) لسان الدين ابن الخطيب :

والامام ابو محمد في التجريح والتعديل حجة على قومه وسوق الملك لاتنكر فيها هذه البضائع ! وكيف نستسيخ اتهام ابن حزم بالتشيع لبني أمية وهو يقول (23) عن علي ابي طالب بالنسبة لافضلية ابن بكر عليه ان ابا بكر ليس خيرا للناس في كل شيء فقد يكون المرء خيرا في شيء ما من آخر

(19) التقريب لحد المنطق والمدخل اليه ص 199

(20) اعمال الاعلام لابن الخطيب ص 29 .

(21) نفس المصدر ص 14 .

(22) اعمال الاعلام ص 14

(23) ج الحادى عشر من المحل ص 286 .

(24) الفصل ج 4 ص 188

(25) الروض الباسم ج 2 ص 36

(26) تلخيص الجبر ج 2 ص 348

X ج العاشر من المحل ص 484 .

في رسالته : «التلخيص لوجوه التخليص» لم يعد منها بغض عثمان أو أمير من أمراء بني أمية بل ولا بغض أبي بكر أو عمر بل جعل (31) منها ترك الصلاة وترك الزكاة وبغض علي بن أبي طالب .

واخلاصا مني المعنى ، وإرضاء لضيبي . وتصحيحا لموافق اتخذها تثير من عناننا في صدر التاريخ العربي فاني ذاكر هنا حقيقته يتجاهنها أهل المعنى بانجرح والتعديل من عناننا الغدامي والحدثي وهي ما كان نسياسة في العصر الاموي والعباسي وللاتجاه الحزبي الصارم في كلا العصرين من الانرا الاكبر في نفوس تثير من العناء الصالحين وتثير من رجال النقد في تخطي حقائق التاريخ وواقع الحياة الاسلامية هربا بانفسهم ان يوسموا بالموالاة نعلي أو لاهل بيته وكان وقع الاتهام بالتشيع لهما في كلا العصرين مماثلا للاتهام بالموالاة للاخوان المسلمين أيام محنتهم في البلاد العربية او بالاخلاص للشيعوية او الانتماء اليها في بلد كأمريكا او الاتهام بموالاة اسرائيل في بلاد الجامعة العربية .

وعلمنا من رجال الشريعة الاسلامية السابقين بأن الشريعة تبيح لهم اذا خافوا على أنفسهم الهلاك أن يتجنبوا ما خافوه على أنفسهم فقد تجنب هؤلاء الاعلان عن انفسهم بموالاة علي وأهل بيته وحملهم هذا الشعور أن يتحروا الرجال الذين يحملون الحديث ، أن يكون أحدهم ملونا بالموالاة لهما وبلغ تحريمهم هذا منتهاه حين أصبح الاتهام بموالاةهما جرحا في الرجل يرخص به حديثه وتضعف به روايته وقد يطرح من أجله الحديث نفسه فلا يكون قابلا للاحتجاج به عند عامة أهل الحديث .

وحسبك مثلا واحدا على مدى الذعر الذي كان يختلج النفوس في هذين العصرين أن تمر على كتاب مقاتل الطالبين لابي الفرج الاصبهاني الاموي القسح صاحب كتاب الاغانى لتعرف أية جريمة نكراء يرتكبها امرؤ في حق نفسه اذا هو والى طالبيا او عرف به .

ولم يستطع شيخ الاسلام ابن تيمية وهو الاموي

قال الحافظ (27) ابن حجر : هذا كلام لاخلاف في بطلانه وهو مبالغته من ابن حزم الا اذا حمل على أنه كان كذلك عند نفسه والا فلم يكن ابن ملجم قط من اهل الاجتهاد ولا كاد وانما كان من جملة الخوارج إهـ

وابن حزم لاينظر الى الخوارج نظرة فقهاء المذاهب الاسلامية اليها بل لايري (28) ان الخوارج فساق ولا غيرهم من اصحاب المذاهب الاسلامية المخالفة لمذهب أهل السنة ، ولا كل ذي رأى يعتقده يستدل عليه من كتاب الله او سنة رسول الله او برهان صحيح ، فهو يرى ان من قامت عليه الحججة بحديث لامعارض له أو آية لامعارض ليا أو برهان ضروري فتماذى على مذهبه أو قوله المخالف للحق أو تناقض فاحتج في مكان ما لا يصح مثله في غير ذلك المكان وبنى عليه ذلك فتماذى على قوله الفاسد في فتيا في شيء من الفقه أو في اعتقاد فهو فاسق وكل ذلك سوا .

ومع كل هذا فقد ذكر (29) عبد الرحمن بن ملجم في كتابه الفصل في معرض الحديث عن طائفة النصيرية وقال لعنة الله على ابن ملجم

وما هنا شيء آخر لا يذهب اليه أموي قط الا أن تكون أمويته في جانب وهو في الجانب الآخر وهو المفاضلة بين عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب واحتمال أن يكون علي أفضل وعدم لزوم من يفضل عليا على عثمان ، فقد قال ابن حزم (30)

« والذي يقع في نفوسنا دون أن نقتطع به ولا نخطئ من خالفنا في ذلك فهو أن عثمان أفضل من علي .»

ثم استدلل لما يقع في نفسه دون أن يقطع به بأن النبي صلى الله عليه وسلم بايع عثمان بيده الشريفة نائبة عن يمين عثمان وألحقه بالذين شهدوا بدرا بأجره التام وسهمه وكان قد تخلف عنها لتمريض زوجته ابنة النبي صلى الله عليه وسلم ثم كانت له فتوحات عظيمة في الاسلام لم تكن لعل وسيرة في الاسلام هادئة !! لم تسفك فيها دما . بسببه ،

ولما كان ابن حزم يعدد كباثر الذنوب والمعاصي

(27) نفس المصدر و ج و ص

(28) ج 5 من الاحكام ص 73

(29) الفصل ج 4 ص 188

(30) الملل والنحل ج 4 ص 147 .

(31) ص 143 من مجموعة الرد على ابن النفريلة اليهودي

(32) منهاج السنة ج 4 ص 155

النزعة وحامل لوائها الا أن يصرح (32) بأن أهل الصحيح أى الذين التزموا اخراج الاحاديث الصحيحة فى كتبهم لم يخرجوا شيئا من حديث ابن عباس عن علي .

ومع ذلك فقد اشتملت كتب الحديث من رواية علي على خمسمائة وستة وثلاثين حديثا يصح منها نحو خمسين حديثا حسب تصريح ابن حزم (33) .

كذلك صرح (34) الذهبي امام اهل الحديث فى نقد الرجال ان جعفر الصادق لم يحتج به البخارى مع العلم ان البخارى احتج بمروان بن الحكم وهو من تعلمون وبعمران بن حطان وهو المضى على عبد الرحمن ابن ملجم صفة الجهاد والقداسة لقتله على بن أبى طالب . وكان جعفر يقول للناس سلونى قبل أن تفقدونى فانه لا يحدثكم أحد بعدى بمثل حديثى .

وهذا مثل عجيب للاتهام بالتشيع فى تلك العصور يقصه الذهبي : فقد كان منصور بن المعتمر أحد العباد الثقات من رجال الحديث الاعلام يبكى الليل كله فاذا أصبح كحل عينيه وبرق شفثيه ودهن رأسه حتى لا يظهر اثر قيام الليل على وجهه فيعرف بعبادته فتقول له أمه أقتلت قتيلًا يابنى فيقول أنا أعلم بما صنعت نفسى ، وصام منصور اربعين سنة وقام ليلها وكان

قد عمش من كثرة الادمان على البكاء .
ومع هذا ينقل (35) انذهبي عن احمد المعجل أن منصورا كان فيه قليل من التشيع .

وفى هذين العصرين نشأ علم الحديث وترعرع ثم اکتهل حيث انتهى الى غايته واعجب لهذا التعبير من ابن حزم اذ يقول (36) مؤرخا للمأمون :

وكان يرى حب آل البيت ولا يعطى من أعرض عنهم او انتقصهم فليل كان يتشيع .

وهذا حديث الذهبي عن هذا الموضوع مختصر جامع موجز ولو انه محتشم من نفسه اذ يقول : (37) .

ان فى الخلفاء وآبائهم واهليهم قوما أعرض أهل الجرح والتعديل عن كشف حالهم خوفا من السيف والضرب ، وما زال هذا فى كل دولة قائمة يصف المؤرخ محاسنها ويفضى عن مساوئها هذا اذا كان المؤرخ ذا دين وخير فان كان مداحا مداهنسا فربما اطرح مساوىء الكبير وهناته فى هيئة المدح والمكازم والمعظمة .

الناصر الکتانى

استاذ محاضر بكلية الآداب بجامعة محمد الخامس
واستاذ دار الحديث الحسنية بالرباط

32 منهاج السنة ج 4 ص 100 .

(33) اسماء الصحابة والرواة وما لكل واحد من العدد لابن حزم ص 276

(34) تذكرة الحفاظ ج 1 ص 157

(35) تذكرة الحفاظ ج 1 ص 135

(36) جوامع السيرة ص 370

(37) الاعلان بالتوبيخ للسخاوى ص 66 .